صدى

بقلم
هدى جاد

المسافة ليست بعيدة بين دارى ودار المجلة يحلولى أحيانا أن أقطعها سيرا على الأقدام وخاصة فى الخريف أو الشتاء عندما يكون الجو رائقا ..

الحى نفسه .. شعبى .. طبيعى لا ادعاء فيه .. فليس هو بمنسق أكثر مما يجب ـ كحى الزمالك مثلا ـ أو عادرا ذا ضجيج كسوق الاثنين ـ عندماأتلفت يمنة أو يسرة أشاهد بعض ـ أكشاك الجرايد ـ لعله من صميم عملى أو بعض الناس الذين ينتظرون على محطات الاوتوبيس فى انتظار الفرج .. هناك أيضا بعض المحلات تبيع عصير الفواكه وانتاج الالبان .. والبدالين ..

وفى طريقى الى دار المجلة أحسست بشىء غريب .. لم أحس به من قبل .. ربما لاننى قرأت طالعى فى صحيفة الصباح .. فقد كتب فيها .. مفاجأة غير متوقعة .. كلام فارغ .. لاننى سأشاهد الساعة أولا ثم الزملاء والزميلات ورئيس التحرير .. فأين المفاجأة !؟

وعندما احتوتنى حجرتى فى الدور الثالث من دار المجلة انهمكت فى فحص الخطابات المرسلة من بعض النفوس القلقة الحائرة .. هيه .. لولا حيرتهم وتخبطهم لما (أكلنا عيش)

أسندت ظهرى انى مقعدى الجلد المريح وقرعت الجرس .. وفى دقائق دخل الساعى .. ابتسم دون ان يسأل وبعد دقائق أخرى جاء ومعه صينية القهوة .. سكر زيادة وطبقة كثيفة من البن تعلو سطح الفنجال ..

ثم تركنى مع الناس ... أعنى مع خطاباتهم .. الخطاب الاول ... آنسة فى ريعان الشباب لا تستطيع المواظبة على المذاكرة من ... ابن الجيران .. أبدا ليس لانه يغازلها ... بل لانه لا يغازلها .. فهو (تقيل جدا) صبرت عليه .. أكثر من ستة أشهر وهو (ولا كأنه هنا) ماذا تفعل ليلتفت اليها ؟..

يا عزيزتى .. المسألة ليست مسألة تقل والتقل صنعة بل لان قلبه مشغول

بغيرك أو بالدروس التى خاصمتيها ..
عندك حلين .. ربما يصادفك آخر يتجاوب معك .. أو .. انتقلى الى شقة أخرى .. ان .. لم تستطيعى اغلاق النافذة !

وهذا شاب أصيب فى أثناء تأديته عمله وأصبح ذا عاهة .. أقفلت أمامه كل الابواب .. خطاب جدير بالفحص .. سأوليه عنايتى ..

وهذه تشكو من حماتها التى تتفنن فى اثارة حنقها وليس عندها الدراية الكافية لتبادلها الغيظ والكيد فماذا تصنع ؟ الرد بسيط جدا ستكونين فى يوم ما ... حماة !

و ... وما هذا ؟ قرأت الخطاب أول مرة كالمذهولة

ثانى مرة .. كل أشجانى .. تتحرك . تتحفز ..

ثالث مرة .. تيقظ عقلى وهدأت حواسى

هيه ... المفاجأة ... صدق الطالع أيها الخطاب العزيز .. سأتركك لست أدرى بالضبط ... أالى دقائق أو ساعات لكننى الآن بالذات لا أستطيع الفرار من هذه الرؤى التى تلاحقنى فدعنى أتأملها وحدى . كيف أنسى يوم أن عرفت حبيبى حلمى ... فى رحاب الجامعة الفسيح .. التقينا .. تعارفنا .. تحاببنا .. كل العواطف المدخرة المشبوبة منحتها اياه ... فى فترة خطوبتنا التى اختار لها أن تكون قصيرة .. غمره حبى هو الآخر فلم يعد يتحمل لوعة الانتظار .. ثم تزوجنا .. أيقظنى على الحياة .. رعانى ودللنى فى رقة وعذوبة ... وسخاء .

عندما كان يخرج فى الصباح الى عمله .. يتركنى .. وحدى مشتاقة .. ليس لعناقه فقط بل لكلمة حلوة أسرنى بها ...

فى أشهر قليلة كبلنى بكل ما يربط بيننا .. أصبحت لا أطيق فراقه ولو الى لحظات لكن .. حدث شىء أطفأ الكثير من لواعج حبى فقد حملت

ويبدو أن لضعف جسدى وارهاف احساسى عانيت الكثير .. فقد شحب لونى وتسارعت أنفاسى وأصابنى كلل شديد .. نصحنى الطبيب بالراحة التامة ـ ولو فى الاشهر القليلة الاولى . حتى أتمكن من استرداد صحتى ..

وأشارت على أمى أن أسافر اليها فى الريف حيث تقيم مع زوجها الثانى الذى اقترنت به عقب وفاة أبى ـ قائلة لى طالما أنت فى بيتك لن تعرفى للراحة طعما . لم يكن زوج أمى كريها بالقدر الملاحظ فى أزواج الامهات . ولا حنونا كبير القلب كالآباء .. لكنه كفلنى وكأنه يؤدى واجبا للمجتمع لا سبيل للفكاك منه .. ولم يشجعنى على السفر الا مكالمة تليفونية منه يلح على فيها بالذهاب كى أضفى عليهما الكثير من مرحى وايناسى ...

ودعت زوجى وحبيبى والدموع تسبقنى فيمسحها عن وجنتى بشفاهه الحارة ثم يهمس فى أذنى كأنه يغنى قائلا : حافظى على صحتك الغالية واحرصى على حبيبنا القادم .. لولا كلماته هذه .. لما اهتممت بصحتى .. فطالما استرددتها ضمنت سرعة عودتى اليه ولذا فقد نفذت كل أوامر الطبيب .. تحول غذائى الى شراب اللبن الريفى

الصافى وتناول الفواكه التى تقطف توا من الاشجار ·· ومما ساعد على عودة الصحة الى ·· أحاديثه التليفونيـــة اليومية ··

الحديث الصباحى كان يزودنى بغذاء للنهار كله ··

وفجأة ··· تباعدت الاحاديث ·· ثم ·· انقطعت ·· تشوش ذهنى واعتورنى القلق فهمست لأمى بمخاوفى ·· أن زوجى فى البيت بمفرده ·· لا يرعاه أحد ·· لابد وأن هنـــاك شيئا ·· وخطرت لى فكرة ·· أن التليفون ربما أصابه عطل لكننى تبينت ـ فيما بعد ـ أنه سليم نصحتنى أمى وكذلك زوجها بالتريث لبضعة أيام ··

جاهدت نفسى وصبرت ·· لـكننى أحسست بالاختناق فغافلتهما وسافرت بعد أن سطرت لهما كلمتين للاطمئنان ·

تذكرت أن طبيبى نبهنى بألا أجهد نفسى بالسير الطويل ·· وكنت محملة بفواكه الريف وخيراته ·· وفى طريقى الى حبيبى ·· انتـابتنى الهواجس · كنت أطردها فكانت تلاحقنى وتتشبث بى ·· كل الافكار المزعجة المظلمة ·· طافت بمخيلتى ثم تصورته أخيراصريعا لمرضى عنيف وانبت نفسى ·· **لابد انهم** دللونى أكثر ممـــا يجب ·· لو كنت بجانبه لصنته من كل ما هو ضار يكفى أن أزوده بحنانى وقبلاتى وعندما كنت اقترب من البيت عاقتنى لافتة ·· تمنع الســـائرين من عبور الطريق لبعـض الاصلاحات ·· اضطررت أن ألف وأدور كثيرا وطويلا وأخيرا حاذيت البيت ·· بعـــد أن أضنانى التعب ·· والدوار أحسست به فى رأسى كـأننى أتوه فى

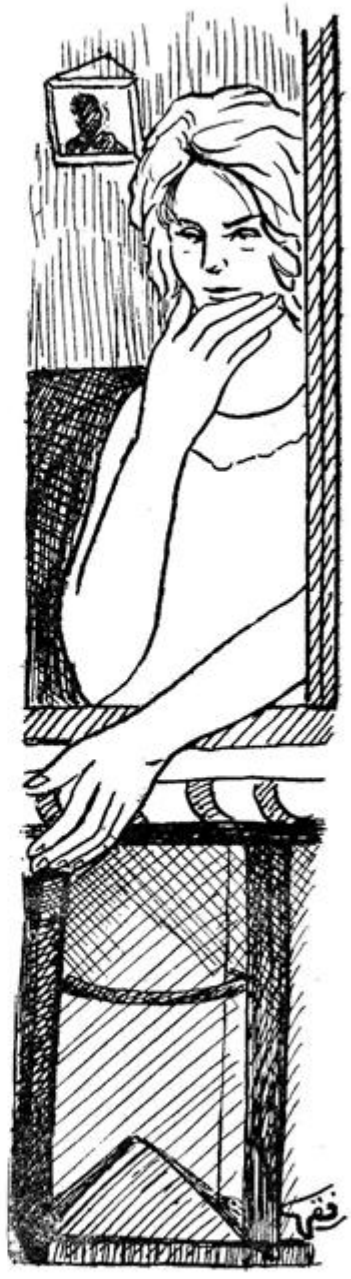

الهواء ·· ثم بقيت عقبة واحدة أخيرة ·· لم يكن لبيتنا مصعد ·· وتحاملت على نفسى ·· وأخذت أصـــعد الدرج واحدة ··· واحدة ···أنفاسى تتلاحق ·· صدرى يعلو ويهبط ·· وأخيرا ·· أخيرا شاهدت باب الشقة أمامى ·· وأخرجت مفتـــاحى وكأننى أفتح به أبواب ·· الجنة ·

البيت ·· كئيب ·· ســـاكن ·· موحش ·· مع أنى تخيرت فترة رجوع حبيبى ·· هيه ·· هذا حسن ومعنـاه أنه بعافية ما دام ليس بالبيت ··ووجدت نفسى أمام باب عشنا ففتحته وكل مافى مقبل عليه ··· ماذا ··· ماذا أرى ؟؟ حلمى مع امرأة ·· للحجرة باب آخر على السـلم ·· قفزت المرأة فى ثوان واختفت وفغر هو فاه ·· وأخيرا واتته الشجاعة ··· أراد أن يتكلم ··لكننى لم أسمع ·· لم أع ·· لم أر ·· يبدو أننى قلت أشياء ··· أشياء غريبة ·· أشياء لا أذكرها ·· ثم أصابنى الشلل فى كل حواسى ·· خيل الىأننى بجوار أمى وأن هذا حلم حلمت به عندها ··

كل ما أذكـــره هو أنى خرجت من البيت لكن كيف سرت ؟ لا أدرى ··

ثم سمعت صوته وهو يردد اسمى ·· كل درجة من درجات السـلم التى هبطتها ذكرتنى بأننى أنحدر واحدة ·· واحدة ·

أفقت بعد ساعات فوجدتنى مع أمى ـ على سريرى ـ أعانى من حالة اجهاض عسير وسرعان ما مرت الايام ·· وفى خلالها أصر زوج أمىعلى طلاقى منحلمى ·· وتم كل شىء كما ينبغى ··

وهانذا الآن ·· امرأة فى الخامس والعشرين من عمرها أعمل بالصحـافة ·· كى أنسى ولا أكون عالة على زوج أمى ··

أما هذا الخطاب الذى أسلمنى الى كل تلك الرؤى ·· فقد وجدت فيـــه نفس الشـــكوى ·· نفس القصة ·· نفس الخديعة··نفس الحسرة والعذاب

تاه فكرى ·· ماذا يجب أن أقـول لتلك المرأة ؟

أية تضحية يجب أن أسديها اليها

انها لم تطلق بعد من زوجها ··فهل أحكم عليها بأن تكون مثلى ؟

انى برغم عذابى ووحدتى وتشردى ··· ما زلت أحب زوجى ··

وهى ··· هى أيضا تحب زوجهـا ·· فهل اقضى عليها بالحرمان مثلى··

هل اقتلها ؟

وجاشت عواطفى وانهمرت من عينى الدموع ·· فتحسست القلم وأمسكته بيـــد مرتعشة وكتبت هـــذه العبارة البسيطة الموجزة : ابقى على زوجك ··